

Afro-Asian Journal of Scientific Research (AAJSR)
المجلة الأفروآسيوية للبحث العلمي (AAJSR)
E-ISSN: 2959-6505
Volume 2, Issue 1, July - September 2024, Page No: 385-394
Website: https://www.aajsr.com

SJIFactor 2023: 3.908 معامل التأثير العربي (AIF) 2023: 0.51 ISI 2023: 0.337

أثر الحالة النفسية في شعر المتنبي

محمد محمد عيسى فيض *
* قسم ادارة السياحة، كلية السياحة والضيافة، مصراتة، ليبيا

The effect of the psychological state on Al-Mutanabbi's poetry

Mohamed M. E. Faid *
* Department of Tourism Management, Faculty of Tourism and Hospitality, Misrata, Libya

*Corresponding author	efedmohammed@gmail.com	المؤلف المراسل*

تاريخ النشر: 2024-09-25	تاريخ القبول: 2024-08-28	تاريخ الاستلام: 2024-07-18

الملخص
اكتسب شعر المتنبي قيمة لما يشتمل عليه من مواقف نفسية، وبذلك أصبح الموقف النفسي من بين هذه المواقف، أهمية خاصة لأنه ينظم دوافع الإنتاج التي تنشأ عنها التجربة الشعرية من جراء حالته النفسية العنيفة، التي جاءت معبرة، ويستخرج كل ما في نفسه، ومدى ارتباط المتنبي بمجتمعه، وظهور حياته إذ أنها شكلت نقطة هامة لوّنت مسار حياته، وشعره، وتوجيه بيان موقفه النفسي وأنه كان صادقاً في أغلب مواقفه التي ترجمها شعراً، قد سلك المتنبي في شعره ألواناً، وأشكالاً وتعابير كانت بمثابة التجديد والابداع، تبعاً لحال عصره، أعطته نوعاً من التفرد، حاملاً بعض الأساليب الفنية الجديدة التي أتت مع هدف شعره له، إن أثر الحالة النفسية في القيم في شعر المتنبي كما أوضح علماء النفس، أنها تتشكل في المجتمع من خلال العلاقة بين المرء، والخبرة، في موقف معين، وهي مجموعة القيم الاجتماعية، والقيم السياسية والقيم الدينية، والقيم الذاتية، تمثل المتنبي هذه القيم في شعره.

الكلمات المفتاحية: الحالة، النفسية، الشعر، المتنبي.

Abstract
Al-Mutanabbi's poetry gained value because of the psychological positions it contained, and thus the psychological position became among these positions of special importance because it organizes the motivations of production from which the poetic experience arises as a result of his violent psychological state, which was expressive, and he extracts everything within himself, and the extent of Al-Mutanabbi's connection with his society and the emergence of his life, as it constituted an important point that colored the course of his life and his poetry, and directed the statement of his psychological position and that he was truthful in most of his positions that he translated into poetry. Al-Mutanabbi used colors, forms and expressions in his poetry that were like renewal and creativity, according to the state of his era, which gave him a kind of uniqueness, carrying some new artistic styles that came with the goal of his poetry. The effect of the psychological state on values in Al-Mutanabbi's poetry, as psychologists have explained, is that it is formed in society through the relationship

between a person and experience in a particular situation, which is a set of social values, political values, religious values, and subjective values. These values represent Mutanabbi in his poetry

Keywords: State, Psychological, Poetry, Al-Mutanabbi.

المحور الأول: مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

لقد أدرك المتنبي أهمية الحالة النفسية في الحياة وعبر عن ذلك تعبيراً فنياً، عرف في شعره، ويخاطب كل نفس بأسرارها وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها ونسمع في النفس دبيبها، وقد أكدت الأبحاث النفسية الحديثة علاقة الأداء الإبداعي بالتوتر النفسي للشاعر، نتيجة لوجود حاجة، أو رغبة يريد تحقيقها، يحول بينها وتحقيقها عائف أو حائل، على أن يصاحب هذا التوتر مناخ نفسي، يتسم بمقومات الحالة النفسية كماً وكيفاً ليساعد على نمو القدرة الابداعية وثرائها، فإذا زاد التوتر عن حده الأمثل، وكذلك إذا قلّ عنه عطّل الحركة الإبداعية، أو على أقل تقدير أثبت صلته بها، أو أصبح غير كاف لنموها وازدهارها، وأن الشعر يأتي انعكاساً للحالة النفسية للشاعر، وقد بدأ أثرٌ للحالة النفسية في شعر المتنبي بدرجة كبيرة، سيحاول البحث هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملاً بذلك أن ألقي ضوءاً ولو قليلاً على أثر الحالة النفسية في شعر المتنبي.

وقد حاول البحث أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر الحالة النفسية في شعر المتنبي، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في خمسة محاور، يتناول المحور الثاني أثر الحالة النفسية في شعر المتنبي، ويتناول المحور الثالث أثر الحالة النفسية في التجديد والابداع في شعر المتنبي، ويتناول المحور الرابع أثر الحالة النفسية في القيم في شعر المتنبي، وتتناول المحور الخامس الخاتمة النتائج التي توصل إليها البحث. والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدارسين، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والنجاح، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

المحور الثاني: أثر الحالة النفسية في شعر المتنبي

هنا يقف الباحث على تأثير الموقف النفسي للشاعر على بنائه الفني في تجربته الشعرية، والأبعاد النفسية لهذه التجربة من خلال معاناته والتي شكلت شعره وفنه. موقف الشاعر من أميره سيف الدولة. وكافور مثلاً، وهما أبرز ممدوحيه فقد وجد بعض طموحاته عند سيف الدولة، ولكن الظروف وطموحه الزائد أدى لتركه له واللجوء لكافور، ولم يكن ساعياً إليه عن طيب خاطر، وإنما رحل إليه بواقع الظروف القاسية التي عاناها للآمال التي كان يريد تحقيقها عنده. وانعكس ذلك في مديحه له فيما بعد، (ومدائحه في كافور يغني بعضها عن بعض لأن موضوعاتها ومعانيها متشابهة). (حسين، د.ت، ص298)

وهذا التشابه لأن الهدف الذي سعى إليه عنده موحد في شعوره ونفسه. وأما في البيئة الفارسية، فقد هدأت نفسه وسكنت ثورته ونبراته وجرسه. وأن الفن يأتي انعكاساً للحالة النفسية للفنان وهو يعيش في كبت دائم. يقول فرويد معبرا عن ذلك: (إنّ الجمال الفني إشباع لرغبات مكبوتة في عالم اللاشعور ظلت تعمل دون انقطاع حتى اتجهت إلى التسامي عن طريق التعبير الفني الجميل). (إسماعيل، 1963، ص304)

ويكشف عن موقفه من الحياة خلال معاتبته للزمان وأنه مل من طول ما اشتكى، وأثقلته الدنيا وداهمته حتى لتجعله يدع الشعر لو لا تصرفه يقول: (المتنبي، 1978، ص180-181)

لَحا اللهُ ذي الدُنيا مُناخاً لِراكِبٍ   ***   فَكُلُّ بَعيدِ الهَمِّ فيها مُعَذَّبُ
أَلا لَيتَ شِعري هَل أَقولُ قَصيدَةً   ***   فَلا أَشتَكي فيها وَلا أَتَعَتَّبُ
وَبي ما يَذودُ الشِعرَ عَنّي أَقَلُّهُ   ***   وَلَكِنَّ قَلبي يا اِبنَةَ القَومِ قُلَّبُ

نجد العزيمة القوية هي ديدنه، ويقول بأن المهانة والكرامة أمران معلقان بالنفوس. (المتنبي، 1978، ص94)

مَن يَهُن يسهُل الهوانُ عليه   ***   ما لجُرحِ بميتٍ إيلام

ومديحه في كافور يختلف عن مديحه لسيف الدولة من حيث القوة ويقرنه بمطامحه عنده يقول: (المتنبي، 1978، ص182)

إذا تَرَكَ الإنسانُ أهلاً وَرائَهُ *** وَيَمَّمَ كافوراً فَما يَتَغَرَّبُ

إذا لَم تَنُط بي ضَيعَةً أَو وِلايَةً *** فَجودُكَ يَكسوني وَشُغلُكَ يَسلُبُ

وهذه القصيدة التي تصور حالة الصراع النفسي الذي وقع عليه وترك بصماته في كل بيت من أبيات القصيدة ومدائحه في كافور تكشف عن ثلاث موضوعات أولاً: عن آماله وآلامه وأحزانه وخيبة هذه الآمال، ثم عن تحسره وندمه من ناحية فراق سيف الدولة، ثم مدحه مدحاً يقابل فيه حاجاته عنده ولننظر إليه في بائيته التي يمدح بها كافوراً والتي مطلعها: (المتنبي، 1978، ص176)

أُغالِبُ فيكَ الشَوقَ وَالشَوقُ أَغلَبُ *** وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصلُ أَعجَبُ

وصور فيها الإشارة لسيف الدولة، وكيف أنه غالب شوقه إليه وبعده عنه. وتحدث ابن طباطبا عن الأبعاد النفسية للشاعر قائلاً (النفس تسكن إلى كل ما يوافق هواها وتغلق ما يخالفها، ولها أحوال تعرف بها فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها، اهتزت له وحدثت منها أريحية وطرب، وإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت). (ابن طباطبا، 1956، ص15)

والمعاناة تولد الإبداع فينعكس ذلك في الألفاظ الشعرية حسب الغرض الذي استعملت فيه، (والألفاظ تنقسم إلى جزلة ورقيقة لكل منها موضع يحسن استعماله فيه) (ابن الأثير، 1960، ص65). فالألفاظ الجزلة تستعمل في وصف الأشواق والحنين والاستعطاف والغزل عموماً، يقول: (المتنبي، 1978، ص31)

إنَّما تُنجِحُ المَقالَةُ في المَر *** ءِ إذا صادَفَت هَوىً في الفُؤادِ

لقد أدرك أبو الطيب أهمية الموقف النفسي في الحياة، وعبر عن ذلك تعبيراً فنياً، عرف في شعره، حيث يقول: (المتنبي، 1978، ص136)

أُصادِقُ نَفسَ المَرءِ مِن قَبلِ جِسمِهِ *** وَأَعرِفُها في فِعلِهِ وَالتَكَلُّمِ

وَأَحلُمُ عَن خِلّي وَأَعلَمُ أَنَّهُ *** مَتى أَجزِهِ حِلماً عَلى الجَهلِ يَندَمِ

وهذه الأبيات التي تنم عن شفافية الشاعر، وقدرته على تمييز الدواخل، فهو أحياناً يشعر بالغربة، والحرمان، فيتسلل إليه الحنين، يقول: (المتنبي، 1978، ص183)

أَحنُّ إلى أَهْلِي وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ *** وأيْنَ مِنَ المُشْتَاقِ عِنْقَاءُ مُغْرِبُ

وخاطب كافور في هذه القصيدة التي تحمل مشاعر نفسه والتي تركت بصماتها على الكلمات فأوحت الكلمة بمكوناتها في قول: (المتنبي، 1978، ص198)

أقلُّ سلامي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمُ *** وَأَسكُتُ كَيما لا يَكونَ جَوابُ

وَفي النَفس حاجات وَفيك فَطانة *** سُكوتي بَيانٌ عِندَها وَخطاب

وهذه قدرة فريدة على الإبداع.

ويخاطب كل نفس بأسرارها وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها ونسمع في النفس دبيبها، ويغلي شعوره منذ صباه، ويكاد يحترق إحساساً، ثم فتح عينيه علـــى عالم أحس أنه غير الذي يحلم به فحمل سيفه وجد بالرحيل، فكلما توغل في حياته، كبرت آماله وَبَعد شاطئها وأزداد خبرة، وفكرة، وكان يحس ويتألم ويواجه الحياة بكل مواقفها، بشجاعة وعبّر عن ذلك بشعره، وهذا الذي ميزه عن غيره، في صاحب قضية، وهدف، وكان له دافعاً للصمود، والسير بهذه الروح العالية يقول: (المتنبي، 1978، ص212)

قَد هَوَّنَ الصَبرُ عِندي كُلَّ نازِلَةٍ *** وَلَيَّنَ العَزمُ حَدَّ المَركَبِ الخَشِنِ

وهذه النفس الغائرة التي أنت بهذه الدرر، كانت تعاني معاناة يصورها الشاعر في ذمه للدهر والزمن يقول: (المتنبي، 1978، ص120)

أَذاقَني زَمَني بَلوى شَرِقتُ بِها *** لَو ذاقَها لَبَكى ما عاشَ وَاِنتَحَبا

وتوالت عنده هذه النغمة التشاؤمية التي تدعو للحرب والقوة كقوله: (المتنبي، 1978، ص163)

سُبحانَ خالِقِ نَفسي كَيفَ لَذَّتُها *** فيما النُفوسُ تَراهُ غايَةُ الأَلَمِ

الدَهرُ يَعجَبُ مِن حَملي نَوائِبَهُ *** وَصَبرِ جِسمي عَلى أَحداثِهِ الحُطُمِ

واكتسب الشعر قيمة لما يشتمل عليه من مواقف ونفسية، وفكرية وفنية، وبذلك أصبح الموقف النفسي من بين هذه المواقف، أهمية خاصة، لأنه ينظم دوافع الإنتاج التي تنشأ عنها التجربة الشعرية. ولا تخل قصيدة من الموقف النفسي. وقد تحدث بن قتيبة عن بواعث الشعر فقال: (للشعر بواعث، تحت البطء، وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب). (ابن قتيبة، 1964، ص17)

وهناك عدة قصائد مدحية كان صدق الشاعر واضحاً فيها من جراء حالته النفسية العنيفة، التي صاحبت مولد القصيدة، وبالتالي جاءت معبرة، ويستخرج كل ما في نفسه. ومنها قصائده التالية: قال يمدح أبا شجاع فاتكاً: (المتنبي، 1978، ص276-278)

لا خَيلَ عِندَكَ تُهديها وَلا مالُ *** فَليُسعِدِ النُطقُ إِن لَم تُسعِدِ الحالُ

وَاِجزِ الأَميرَ الَّذي نُعماهُ فاجِئَةٌ *** بِغَيرِ قَولٍ وَنُعمى الناسِ أَقوالُ

فَرُبَّما جَزِيَ الإِحسانَ مولِيَهُ *** خَريدَةٌ مِن عَذارى الحَيِّ مِكسالُ

فَكُنتُ مَنبِتَ رَوضِ الحُزنِ باكَرَهُ *** غَيثٌ بِغَيرِ سِباخِ الأَرضِ هَطّالُ

وقال يمدح سيف الدولة ويعاتبه: (المتنبي، 1978، ص364)

واحرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ *** وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ

مالي أُكَتِّمُ حُبّاً قَد بَرى جَسَدي *** وَتَدَّعي حبَّ سيفِ الدَولَةِ الأُمَمُ

إِن كانَ يَجمَعُنا حبٌّ لِغُرَّتِهِ *** فليتَ أَنّا بِقَدْرِ الحبِّ نَقتَسِمُ

ويمدح المغيث بن علي العجلي: (المتنبي، 1978، ص69)

فُؤادٌ ما تُسَلّيهِ المُدامُ *** وَعُمرٌ مِثلُ ما تَهَبُ اللِئامُ

وَدَهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ *** وَإِن كانَت لَهُم جُثَثٌ ضِخامُ

وَما أَنا مِنهُمُ بِالعَيشِ فيهِم *** وَلَكِن مَعدِنُ الذَهَبِ الرَغامُ

وهذه الأبيات الآنفة الذكر، كلها مطالع لقصائد مدحية ومطلع القصيدة عند الشـــاعر يعكس الحالة النفسية التي يعيشها.

ففي القصيدة الأولى يُظهر فيها سروراً، وحبوراً، وإنشراحاً لصدره معبراً عما يكنه في نفسه. أما في الثانية، نجد ذلك العتاب الدافئ، والنفس الجريحة، الكسيرة، والشعور بالحســــرة والألم. أما في الثالثة يظهر شعوراً بالضيق والتبرم وسخط على الدهر والناس والحياة وإعزازاً لنفسه ومواساة لها، فالحالة النفسية للشاعر تنعكس في مدائحه ويعبر عما يختزنه في نفسه، وإلا فكيف يمكن تفسير قصيدته الثالثة في ممدوحه المغيث العجلي والتي أتت هي أقرب للهجاء منها للمدح؟

وهذا بعض ما كان يحمله الشاعر في نفسه لذكره لممدوحه بكل صدق، ثم بعد هذا الإخفاق في تجربته الأولى مع سيف الدولة، وبعد كل قصائد الاعتزاز والحب، لم يلف قلب ممدوحه فرحل، وتركه وقلبه مثقل بالجراح، وفي أول قصيدة يمدح بها كافور والتي مطلعها: (المتنبي، 1978، ص281)

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا *** وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

وهذه القصيدة امتداد لما عانته نفس الشاعر في حلب، وتاريخ محنتها (وقد أكـــــدت الأبحاث النفسية الحديثة علاقة الأداء الإبداعي بالتوتر النفسي للشاعر، نتيجة لوجود حاجة، أو رغبة يريد تحقيقها، يحول بينها وتحقيقها عائق أو حائل، على أن يصاحب هذا التوتر مناخ نفسي، يتسم بمقومات الصحة النفسية كما وكيفا ليساعد على نمو القدرة الإبداعية وتراثها، فإذا زاد التوتر عن حده الأمثل، وكذلك إذا قل عنه عطل الحركة الإبداعية، أو على أقل تقدير أثبتت صلته بنا، أو أصبح غير كاف لنموها وإزدهارها). (الملأ، 1972، ص215)

وأعتقد أن الحرمان الذي صاحب الشاعر منذ نعومة أظافره وترعرع معه، واضطراب الحياة السياسية، وتقلب أوضاع الخلافة الوشاية، والحسد اللذان وجدهما في بلاط الأمراء، والولاة والدعوات القرمطية والشيعية والحالة الاجتماعية والثقافية الوافية في عصره، وامتلاك معظم بلاد العرب من العجم، وطموحه

الوثاب، ومجده الذي يريد تحقيقه أدى إلى نزعة رافضة، ونفس قلقة إلى كل من حوله، وشكاية للدهر وتنفسه من خلال مطالع قصائده، كل ذلك كان له أثر بيّن في نفسيات الشاعر، وشخصيته وأدى هذا الصراع النفسي الحاد إلى ميلاد شعر قوي معبر، ووضح ذلك جليًا عند كافور في مصر.
والنقاد لم يقفوا في دراساتهم عند دراسة الأسلوب، والموسيقى وما فيها من سهولة وتنافر، وما بها من تعقيد أو ما يعود على التركيب. بل ربطوا بين الأسلوب والنفس البشرية باعتبارها المعين الذي فاض عنه الأسلوب والمرآة التي تعكس نفس الشاعر، وتكشف عن سماتها، ودرجة انفعالها، وهدوئها. وهذا العلم الذي أخذ به المحدثون من النقاد، لارتباطه بعلم النفس التحليلي، ونتجت عن ذلك دراسة الموازنات التي استهدفت بيان خصائص الشاعر النفسية، وميزاته الفنية وأخذ بها كثير من النقاد. وكانت الموازنة بين المتنبي وغيرة من الشعراء، وعلى سبيل المثال مع الشاعر أحمد شوقي، والمتنبي من أولئك الشعراء الذيـــن يغلب عليهم. الصدق الفني في أشعاره، وتنعكس حالته النفسية لحظة ميلاد القصيدة فيعبر عنها بكل ما في نفسه من طموح، وما ساقه الدهر له من متاعب، ومصائب، وما أصاب زمنه من ضعف، وهوان، وربطه بمشكلة اجتماعية يعبر فيها تعبيرا اجتماعياً عاماً، ثـــم تكـــون مناسبة القصيدة وتعداد مآثر ممدوحه بعد أن أخرج ما في نفسه مع الربط المحكم لتلك الرفرات مع الجو العام للمعنى الذي تحمله القصيدة، وتعميم الموقف النفسي الذي يجد فيـــــه ذاته، والذي يربط كل القصيدة مع بعضها.

المحور الثالث: أثر الحالة النفسية في التجديد والابداع في شعر المتنبي

ثم جاء المتنبي، وجدد في المعاني التي جرى عليها الشعراء في باب المديح، وأصبح ينظر في الحياة نظرة التدبر والتمحيص يقلب الرأي ويعيد الفكرة، ويقيس الأشباه والنظائر، ويرد الأمور إلى أصولها ومنازعها، وينتزع جوهر المعاني من بيـن أعراضها. (شاكر، 1978، ص323)
وإذا تتبعنا مديحه منذ صباه، نجد تلك الثورة العارمة في بداية تجواله في الشام، وفي البوادي والحضر، يمدح علية القوم وقوادهم، والأمراء بحثاً عن الذات وإيجاد مكانة بينهم، وإشباع لروحه المتقدة، وذلك للطموح الوهاج. وبالتالي لم يستطع الاستقرار، واختلط مجتمعة بالشعوبية التي غيّرت طعم ورائحة الحياة البدوية الأصيلة التي كانت سائدة. وبذا أصبح هو الوحيد في المعترك ينادي، حاثاً على التحلي بـهـا، ذاماً حال عصره الذي اتصف بالانحلال وضعف الأمراء، والخلفاء من خلال قصائده يقول: (المتنبي، 1978، ص70)

وَدَهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ ⁂ وَإِن كانَت لَهُم جُثَثٌ ضِخامُ

وعندما يمدح أحداً من الأمراء، أو رجلا ذا مكانة إنما يلبسه تلك القيم التي يراها هي الأصل لممدوحه، ليحذو حذوها وهذا أدى لظاهرة المبالغات في مدائحه، والتي تحدث عنها النقاد ويدل مديحه على أنه رجل خبر الحياة وتقلباتها كما خبر الشعر. ووضح جلياً في مديحه لسيف الدولة، وكافور، وابن العميد، وعضد الدولة. وظهرت شخصيته من خلال قصائده. فقد كان يمدح، ويتغنى أشواقها. وعندمـا يمدح أميراً، أو ملكاً، يَقْصُر شعره عليه وهو في معيّته. (ومديحه ما هو إلا فخـــر بكـاف الخطاب؛ لأنه كان يثني على ممدوحه بما يريده لنفسه، بحسه من صفاته). (العقاد، 1978، ص130)
ويتباين مديحه من ممدوح لآخر تبعاً لحالته النفسية، تارة يمدح منصفاً، يزاوج فيه بين نفسه وممدوحه، وآخر مدحه مدحاً عرضياً. وقوة مديحه لسيف الدولة أتـــت عندما سكنت نفسه وهدأت ثورته يقول معبراً عن ذلك: (المتنبي، 1978، ص92)

رِضاكَ رِضايَ الَّذي أوثِرُ ⁂ وَسِرُّكَ سِرّي فَما أُظهِرُ

وكان تجويده للشعر وإبداعه في هذه الفترة (عندما قام بوصف حروب سيف الدولة وغزواته، فصارت القوة التي كانت بينة في شعره الأول إلى هذا الشعر). (شاكر، 1978، ص327)
والشاعر يأتي بالصفات الكريمة التي تصادف هوى في النفوس، وتلقى قبولاً كقوله: (المتنبي، 1978، ص85)

إِنَّما تُنجِحُ المَقالَةُ في المَر ⁂ ءِ إِذا صادَفَت هَوىً في الفُؤادِ

وهذه المقالة التي تصادف هوى في نفس الشاعر يضفيها على ممدوحه، وهي فلسفة اتبعها الشاعر، وأصبحت معبرة عنه، وهذا من تجاربه خلافاً لتلك الصورة التـي تعبر عن الهدف، فتأتي بصورة فنية جميلة، وعادة ما تمثل صفات القوة، والشجاعة فـي ممدوحه.
وشخصية الشاعر وطموحه الوثاب ومبادئه التي يؤمن بها، جعلته لا يهاب حتى الذي يهابه الملوك يقول مخاطباً ممدوحه سيف الدولة: (المتنبي، 1978، ص366)

يا أَعدَلَ الناسِ إِلّا في مُعامَلَتي *** فيكَ الخِصامُ وَأَنتَ الخَصمُ وَالحَكَمُ

وإذا كان المدح معاينة للفضائل، وذكر للمحاسن، وتمجيداً للبطولة، وتغنياً بالمآثر، فهو أيضاً مدرسة أخلاقية، تخرّج الناشئة على الشجاعة، والكرم، والإباء، وقد تمثل الشاعر هذه الصفات من خلال مديحه.
وميزة المديح عنده (أنه يطلب من الممدوح حقاً له، ينبغي على الممدوح تأديته، ويشبه ممدوحه بذلك، فيعطي كلامه دلالة خاصة). (المازني، 1984، ص154)
وبذلك حدد بعض النقاد اتجاهات المدح وحصروها في بعض الفضائل يقول قدامة: (إن المدح ينبغي أن يعول على الفضائل النفسية فحسب؛ لأن الناس ينبغي أن تتفاضل من حيث هم ناس، لا من حيث هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان. وقال: إن جماع هذه الفضائل تنحصر في أربع هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة). (بن جعفر، 1979، ص65)
ولذلك تمثل الشاعر هذه الصفات في مديحه، وأصبغها على من وجد يمثلون النهضة العربية، مادحاً إياهم، وحاثاً لهم على القيام بهذا الأمر، ذلك لانشغال الأمراء، والخلفاء بالحياة الاجتماعية وتسلط الأعاجم على السلطة وبث هذه الروح في نفوس ممدوحيه، ويتجلى ذلك واضحاً في مديحه للأمراء كأبي العشائر، وبدر بن عمار، وأميره سيف الدولة، يقول مادحاً بدر بن عمار: (المتنبي، 1978، ص212)

وفي اعتماد الأمير بدر بن عَمّا *** رِ عَنِ الشَّغْلِ بِالوَرَى شُغْلُ
أصْبَحَ مالا كما له لذوي الـــــــ *** حَاجَةٍ لَا يُبْتَدَى وَلَا يُسَلُ

وأن المديح عند المتنبي ليس مدحاً لصفات يحبها الممدوح، ويتوسل بها، وإنمـــا تستهدف القيمة، والصفة أكثر منها استهدافاً للشخص ذاته، والتي تنبع من إيقاعه الذاتي الخاص، ذلك الإحساس الذي أشرنا إليه من قبل عند بعض الشـعراء القدامى وتأثر المتنبي بهذه المثل. ثم يقوم بتجسيد هذه الصفات التي يقدّره المجتمع، ثم يحاول ربطها بممدوحه، وهذا المثل يكتسب قيمة جمالية كبرى بمدلوله الإنساني ولكن لا يدركه الجمال الحقيقي، إلا إذا كان منطبقاً بالفعل على الممدوح. ويرجع بنـــا الشاعر بذلك إلى المدح قبل التكسب، والذي أشرنا إليه من قبل. وتكون المدحة تجسيداً لرؤيته، وموقفه النفسي من الحياة، ثم كان الصراع مع هذه القيم مع تنقله في البيئات المختلفة، وكان لأثر شخصية الشاعر القلقة أثراً في بلورة العامل النفسي لكل قصيدة في مختلف البيئات. وهذا لا يغض من قيمة ذكر رغبة الشاعر في استدراك ما يريـده من الممدوح، وبغض النظر عن بواعث القصيدة.
وقد سلك الشاعر في مدائحه ألواناً، وإشكالاً وتعابير كانت بمثابة التجديد والإبداع، تبعاً لحال عصره، وأعطته نوعاً من التفرد، وحكت لنا مدائحه في صباه حملها لروح القوة، وسفك الدماء، وأخذ حقه عنوة، وجاء مديحه لكافور حاملاً بعـض الأساليب الفنية الجديدة التي أتت مع هدف مديحه له يقول: (المتنبي، 1978، ص198)

وَفي النّفسِ حاجاتٌ وَفيكَ فَطَانَةٌ *** سُكُوتي بَيَانٌ عِنْدَها وَخِطابُ

وكان غرضه الولاية ولم يكن يحب كافور لقوله: (المتنبي، 1978، ص195)

وَلَولا فُضولُ الناسِ جِئتُكَ مادِحاً *** بِما كُنتُ في سِرّي بِهِ لَكَ هاجِيا
فَأَصبَحتَ مَسروراً بِما أَنا مُنشِدٌ *** وَإِن كانَ بِالإِنشادِ هَجوُكَ غالِيا

المحور الرابع: أثر الحالة النفسية في القيم في شعر المتنبي:

ومن خلال هذه الرحلة مع الشاعر وتقلبه في العديد من البيئات بحثـــا عـن الـذات، ووصولاً للمجد تمثلت مدائحه في أربع قيم: قيم اجتماعية، وقيم سياسية، وقيم دينية، وذاتية.

والقيم الاجتماعية كما أوضح علماء النفس، أنها تتشكل في المجتمع من خــلال العلاقة بين المرء، والخبرة، في موقف معين، وهي مجموعة القيم الإنسانية الخُلقية، والنفسية التي احتضنها الشعراء واهتدوا إليها واستمدوها من وحي المجتمع، ونظامه كالشجاعة، والكرم، والأمانة وتمثل المتنبي هذه القيم في ممدوحيه، كقوله في سيف الدولة: (المتنبي، 1978، ص291-292)

تَرَكتُ السُرى خَلفي لِمَن قَلَّ مالُهُ *** وَأَنعَلتُ أَفراسي بِنُعماكَ عَسجَدا

وَقَيَّدتُ نَفسي في ذَراكَ مَحَبَّةً *** وَمَن وَجَدَ الإِحسانَ قَيداً تَقَيَّدا

ومن هذه القيم ما يتصل بالمواهب العقلية، كالذكاء، والحكمة، والفضل، وما شاكلها، يقول في سيف الدولة: (المتنبي، 1978، ص280)

أُحِبُّكَ يا شَمسَ الزَمانِ وَبَدرَهُ *** وَإِن لامَني فيكَ السُهى وَالفَراقِدُ

وَذاكَ لِأَنَّ الفَضلَ عِندَكَ باهِرٌ *** وَلَيسَ لِأَنَّ العَيشَ عِندَكَ بارِدُ

ومن هذه القيم الاجتماعية ما يتعلق بالفضائل الحسية للمدوح كالتغني بحمال المحيا، والوجه، وهذه الصفات التي يرمى من ورائها الشاعر إلى تأكيد خصال مجندة، وفضائل معنوية، ينفذ من خلالها الممدوح إلى قلوب الناس، مثل الهيبة، والسيادة، يقول مادحاً سيف الدولة: (المتنبي، 1978، ص379)

يُكَلِّفُ سَيفُ الدَولَةِ الجَيشَ هَمَّهُ *** وَقَد عَجَزَت عَنهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ

وَيَطلِبُ عِندَ الناسِ ما عِندَ نَفسِهِ *** وَذَلِكَ مالا تَدَّعيهِ الضَراغِمُ

يقول أحمد أحمد بدوي (ويبدو أن النقاد حينما استقصوا هذه الصفات النفسية في مدائح الشعراء، وأفاضوا في الحديث عنها، إنما كانوا يستحثون الشعراء على تلمس هذه الفضائل في ممدوحيهم، وتمجيدها فيهم، بوصفها نموذج المدح الرفيع الذي يشيد بالسمو الإنساني، ويصور مثلاً عليا للإنسانية) (بدوي، 1979، ص194). ولم تتغير نظرة العربــي إزاء هـذه القيمة بطبيعة الحال نتيجة لتغير المكان والزمان، وإنما أصبحت مرتبطة بتكوينهم العقلي على مر الزمان.

أما القيم السياسية فكان لحياة المجتمع العباسي الدور الكبير في بلورتها فقــد عرف الشاعر ببغضه للأعاجم الذين يملكون زمام الأمور في الدولة. يقول: (المتنبي، 1978، ص59)

وَإِنَّما الناسُ بِالمُلوكِ وَما *** تُفلِحُ عُربٌ مُلوكُها عَجَمُ

لا أَدَبٌ عِندَهُم وَلا حَسَبٌ *** وَلا عُهودٌ لَهُم وَلا ذِمَمُ

ويقول مادحاً كافور: (المتنبي، 1978، ص290)

وَغَيرُ كَثيرٍ أَن يَزورَكَ راجِلٌ *** فَيَرجِعَ مَلكاً لِلعِراقَينِ والِيا

وقد تمثلت هذه القيمة مع أكثر من ممدوح، وبانت عند سيف الدولة، فكانت هذه القيمة وأهميتها الكبيرة، بالنسبة للممدوح من رفع لشأنه وتقوية لسلطانه، وكــان الاضطراب الحياة السياسية أهمية لهذه القيمة، ولم يألو الشاعر جهداً من أن ينوه إلى هذه القيمة المتصلة، بالقوة، والشجاعة، والفروسية، ويجسدها في ممدوحه، من خلال المواقف الأحداث في معرض الحقيقة، حينا والمبالغة حيناً آخر، وقد سجل كثيرا من المعارك الحربية، وأشاد بسياسة سيف الدولة وقوة جيشه وبطشه بعدوه. وكانت لهذه المدائح ضرورة لازمة للأمراء، والسلاطين، ودوافعها النفسية، والسياسية، ولولا ذلك لما رضي سيف الدولة بمدحه له، وهو جالس، ويدخل في ذلك وصفه للجيوش وأدوات الحرب، والدروع والخيول، وساحات المعركة.

أما القيم الدينية لم تجد اهتماماً كبيراً، عند شعراء عصره وذلك لانشغال الشعراء بغيرها من الأغراض الأخرى، من دخول المدنية الجديدة والحضارة الوافدة واللهو والمجون، إلا أن الشاعر تعرض لهذه القيمة من خلال مديحه لسيف الدولة، وكانت لمسة واضحة، فكان لطغيان العنصر الغير عربي، والشعوبية الوافدة، وتملكهم زمام الأمور أحد أسباب ظهور هذه القيمة، إضافة لتلك الهجمات التي تطرأ من حين لآخر من قبل الروم، على حدود الدولة العربية، ولتوحيد قلوب المسلمين والعـــرب وبعث الهمم في نفوسهم، يقول مادحاً سيف الدولة: (المتنبي، 1978، ص104)

وَأَنتَ مَعَ اللَهِ في جانِبٍ *** قَليلُ الرُقادِ كَثيرُ التَعَب

ويقول مادحاً إياه بقوله: (المتنبي، 1978، ص391-392)

وَلَستَ مَليكاً هازِماً لِنَظيرِهِ *** وَلَكِنَّكَ التَوْحيدُ للشّرْكِ هَازِمُ

هَنيئاً لضَرْبِ الهَامِ وَالمَجْدِ وَالعُلَا *** وَرَاجِيكَ وَالإسْلامِ أنّكَ سالِمُ

وهذه الدعوة لهذه القيمة لم تكن لطائفة أو فكر، وإنما لكل المسلمين للالتفاف حول ممدوحه، وهو حامي حمى المسلمين. وأن هذه القيمة التي مدح بها ممدوحه وخلعها عليه لا يمكن النظر إليها، أنها حقيقة ورصداً دقيقاً لحال الممدوح، وليس معنى ذلك أنه غير صادق في تعبيره ومشاعره بقدر ما كان يلبس هذه القيمة لممدوحه بحيث يتغنى بها ويريد أن يلبسها له.

أما القيمة الذاتية، يقصد بها القيمة التي يبينها الشاعر عن نفسه، ويعكس من خلالها مطامحه، وآماله، والأمة، ومشكلاته في الحياة وعواطفه الإنسانية، والنفسية، وهي واضحة بجلاء في مدائحه في كل مراحل حياته الأدبية، وسجلت لنا حياة الشاعر الاجتماعية والسياسية، والثقافية وظهرت هذه القيمة في صباه وعبر فيها عن نفسه مفتخراً بها، ودخلت في مدائحه ماثلة أحياناً بنفسها، ومدحها مع ممدوحه. وكانت لدفع الضرر عنه، وإظهاراً لنفسه، ليصل إلى ما يصبو إليه، وكانت ظاهرة بجلاء في قصيدته في وصف الحمى التي ألمت به في مصر، وأصبحت تتنازع قلبه حمى اليأس، والهم بعد ضياع آماله، وإخفاقه في إدراك مطامحه حتى مله الفراش، يقول: (المتنبي، 1978، ص145)

وَمَلَّنِيَ الفِراشُ وَكانَ جَنبي *** يَمَلُّ لِقاءَهُ في كُلِّ عامِ

قَليلٌ عائِدي سَقِمٌ فُؤادي *** كَثيرٌ حاسِدي صَعبٌ مَرامي

وهذه القيمة تكشف عن خبايا الشاعر ويصور من خلالها أحاسيسه وخلجات نفسه نجده يقول: (المتنبي، 1978، ص40)

إذا أَرَدتُ كُمَيتَ الخمر صافِيَةً *** وَجَدتُها وَحَبيبُ النَفسِ مَفقودُ

ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُهُ *** أَنّي بِما أَنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ

ونتيجة لذلك نجد (أنه من الطبيعي أن يعبر عن الجانب الفكري المثالي، في شخصيته التي تصدر عنه الأحاسيس السامية، والعواطف النبيلة فيصف مثله وآلامه، ويتغنى بما يريده ويطمح إليه) (هلال، 1969، ص386). وبرزت هذه القيمة ضمن الصور الجديدة في الشعر العباسي، وتفرد بها شاعرنا فأصبحت معبرة عما في دواخله مما يؤكد أن قصيدة المديح اتسعت فيها أفاق التجربة الشعرية، لتحوي مضامين إنسانية، إلى جانب تلك المضامين القديمة.

إن للشاعر أقوالاً وصفاتٍ قلت عند كثير من الشعراء والأمراء. وهناك صفات تفرد بها في شعره كالشجاعة، وتقديس التضحية، والأنفة والكبرياء، وعلو الهمة، وكرهه للدونية، في الأفعال والأقوال فكان هذا طبعه منذ صباه حيث يقول: (المتنبي، 1978، ص33)

إِلى أَيِّ حينٍ أَنتَ في زِيِّ مُحرِمٍ *** وَحَتّى مَتى في شِقوَةٍ وَإِلى كَمِ؟

فهو لا يصادق إلا من تتصل فيه صفاته بصفاته يقول في ذلك: (المتنبي، 1978، ص135)

أُصادِقُ نَفسَ المَرءِ مِن قَبلِ جِسمِهِ *** وَأَعرِفُها في فِعلِهِ وَالتَكَلُّمِ

وقد تطابقت بعض هذه الصفات والغايات مع ممنوحه سيف الدولة يقول: (المتنبي، 1978، ص378)

عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ *** وَتَأتي عَلى قَدرِ الكِرامِ المَكارِمُ

يريد أن يبرز الصفات الحميدة والتي تتوافق مع نفسه ويقرها المجتمع، على ممدوحه وأن يتحلى بها، وتكون طابع المجتمع الذي يعيش فيه، فهو بمثابة مصلح اجتماعي لمجتمع كان الذي يخرج عن ثقافته، ولا يدخل في معترك الحياة فيه، من المجون، والخلاعة غير مرغوب فيه، ومحروم من لذة الحياة، وكان السلطان أو الأمير هو القدوة وانغمس في هذه الثقافة الوافدة. والشاعر إن لم تكن سيرته تؤهله لأن يكون من أهل الصلاح والدين، إلا أنه عرك الحياة وعركته فكان سمح السيرة كريم الأخلاق.

شهد أبو الطيب معظم المعارك مع أميره سيف الدولة، ومدحه بأعظم القصائد التي تعبر عن هذه المواقف، ووصف بطولته وجيشه ودافعه لذلك أصله العربي وذوده عنها، وصوّره بطلاً وحامى الإسلام من خلال بعض قصائده ودعوته للم شمل الأمة دون مذهب أو طائفة، أو فكر سياسي معين، أو معتقد ديني رغم ما

يموج به عصره من المذاهب والأفكار، والأجناس، والأعراف، ذلك لتجربته في الحياة، وعمقه الفكري وطموحه الوثاب، ولكنه قلق صاحب ضجرات واختيارات تمنعه من أن يتم مقصوده.
قال لابن العميد حينما زين له القدوم على عضد الدولة: (إني ملقي من هؤلاء الملوك أقصد الواحد بعد الواحد، وأملكهم شيئاً يبقى ببقاء النيرين، ويعطونني عرضاً فانياً ولي ضجرات واختيارات، فيعوقونني عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم علـــى أقبح الوجوه). (عزام، 1956، ص172)
وكان هذا العراك بين النفس، والطبع، والواقع المرير الذي وقف في وجه تحقيق طموحاته وفي قصائده يهم ويتوعد بتقتيل الملوك، ثم يسوقه القدر للوصول إليهم ومدحهم، وأنه سيسفك دم البوادي والحضر ثم يسوقه القدر للوصول إليهم والتجوال معهم، (وحين أرسل عضد الدولة في طلبة لمدحه، قال: مالي وللديلم) (عزام، 1956، ص172) ثم قصده ومدحه.
وكان في بداية أمره شديد الكراهية للأعاجم، ووضح ذلك في كثير من مدائحه، لكنه ما لبث أن مدح عدداً منهم كمديحه لفاتك، وابن العميد، ودلير، وعضد الدولة، ثـــم كافور، الذي هجاه فيما بعد. وقد يقال بأن مديحه لكافور في بادئ الأمر، وسكوته عن ذم الأعاجم لمقصده عنده. ولكن هل ينطبق هذا التفسير على غيره من الذين منحهم؟ إذن هو تحول في فكرته في فترة من فترات حياته، يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: (إن المتنبي مدح من مدح من الأعاجم ليستخرج بعض ما في أيديهم من المال الذي غلبـوا العرب عليه، وليكون على مقربة من دسهم وما يضمرونه من المكر السيئ). (شاكر، 1978، ص296)
أن تبدل موقف الشاعر في فترة من فترات حياته كانت سبباً وراء ذلك تبعاً لحالته النفسية المتغيرة، وقيل إن مديحه للأعاجم من كلام اللسان، وخيالات البيان، لا من حقائق النفس وعقائد الفكر، وكان للشاعر عناصر إبداع أدت لهذا التفرد فكانت شخصيته المرنة وابتكاراته الوافرة في شعره وذكاؤه الملحوظ وهذه من العناصر التي عدها علماء النفس لازمة للتفرد والعبقرية.

المحور الخامس: الخاتمة

بعد هذا البحث في موضوع أثر الحالة النفسية في شعر المتنبي، نصل إلى العديد من النتائج، والتي يمكن أن تتلخص في النقاط الآتية:
بيان روح العصر ومدى ارتباط المتنبي بمجتمعه، وظهور بعض الثورات والصراعات التي أثرت في شعره، وتوجيه حياته إذ أنها شكلت نقطة هامة لوّنت مسار حياته، وشعره، ثم بيان موقفه النفسي وأنه كان صادقاً في أغلب مواقفه التي ترجمها شعراً.
اكتسب شعر المتنبي قيمة لما يشتمل عليه من مواقف نفسية، وبذلك أصبح الموقف النفسي من بين هذه المواقف، أهمية خاصة لأنه ينظم دوافع الإنتاج التي تنشأ عنها التجربة الشعرية من جراء حالته النفسية العنيفة، التي جاءت معبرة، ويستخرج كل ما في نفسه
قد أكدت الأبحاث النفسية الحديثة علاقة الأداء الإبداعي بالتوتر النفسي للشاعر، نتيجة لوجود حاجة، أو رغبة يريد تحقيقها، يحول بينها وتحقيقها عائف أو حائل، على أن يصاحب هذا التوتر مناخ نفسي، يتسم بمقومات الحالة النفسية كماً وكيفاً ليساعد على نمو القدرة الابداعية وثرائها، فإذا زاد التوتر عن حده الأمثل، وكذلك إذا قلّ عنه عطّل الحركة الإبداعية، أو على أقل تقدير أثبت صلته بها، أو أصبح غير كاف لنموها وازدهارها.
قد سلك المتنبي في شعره ألواناً، وأشكالاً وتعابير كانت بمثابة التجديد والابداع، تبعاً لحال عصره، أعطته نوعاً من التفرد، حاملاً بعض الأساليب الفنية الجديدة التي أتت مع هدف شعره له.
إن أثر الحالة النفسية في القيم في شعر المتنبي كما أوضح علماء النفس، أنها تتشكل في المجتمع من خلال العلاقة بين المرء، والخبرة، في موقف معين، وهي مجموعة القيم الاجتماعية، والقيم السياسية والقيم الدينية، والقيم الذاتية، تمثل المتنبي هذه القيم في شعره.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير. (1960). المثل السائر، قدمه وحققه وعلق عليه، أحمدا لحوفي، وبدوي طبانة. مصر: دار النهضة.
2. ابن خلكان. (د.ت). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة.
3. ابن طباطبا. (1956). عيار الشعر. مصر: المكتبة التجارية الكبرى.
4. ابن قتيبة. (1964). الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر. دار إحياء الكتب العربية.
5. إسماعيل، عزالدين. (1963). التفسير النفسي للأدب. ط6، مكتبة غريب.
6. بدوي، أحمد أحمد. (1979). أسس النقد الأدبي عند العرب. القاهرة: دار النهضة للطباعة والنشر.
7. بن جعفر، قدامة. (1979). نقد الشعر، تحقيق، كمال مصطفى. ط2، القاهرة.
8. حسين، طه. (د.ت). مع المتنبي. مصر: دار المعارف.
9. شاكر، محمود محمد. (1978). رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. مصر: مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر.
10. عزام، عبد الوهاب. (1956). ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام. ط2، مصر: دار المعارف.
11. العقاد، عباس محمود. (1978). مطالعات في الكتب والحياة. دار الفكر.
12. المازني، إبراهيم عبد الله القادر. (1984). حصاد الهشم. القاهرة: المكتبة العصرية.
13. المتنبي. (1978). ديوان المتنبي. بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبط وتصحيح، مصطفى السقا وآخرون. بيروت: دار المعرفة.
14. الملأ، سلوى. (1972). الابداع والتوتر النفسي. القاهرة: دار المعارف.
15. هلال، محمد غنيمي. (1969). النقد الأدبي الحديث. ط4، القاهرة: دار النهضة للطباعة والنشر.